قصة قصيرة

العصفور والعصفور

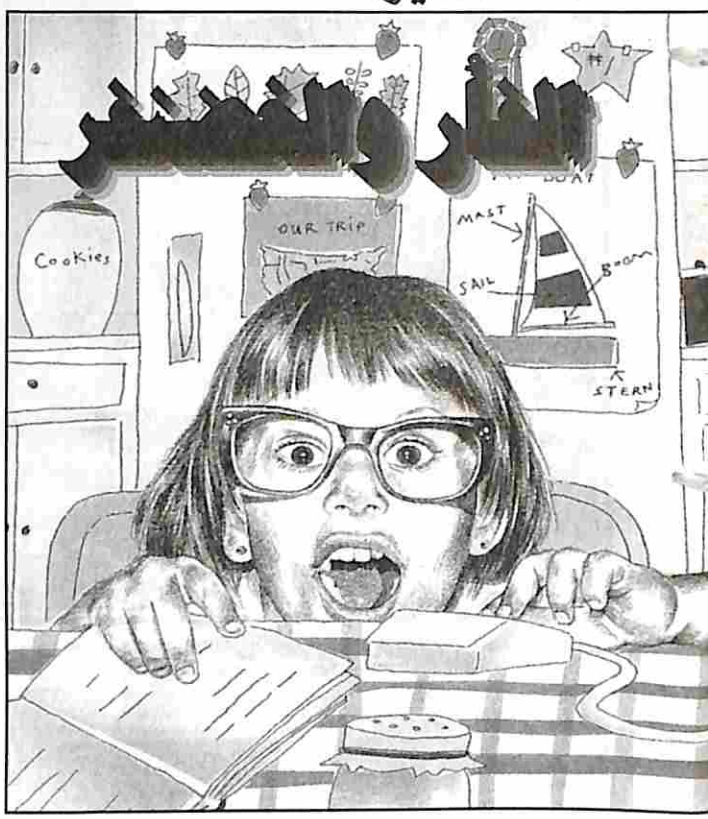

كان سروري عظيما وأنا أرافق ابني الأصغر إلى المدرسة في أول يوم له في تجربة التعليم.

انطلق يقفز مبتهجا كالعصفور يسبقني بخطوات نحو الباب الكبير، وكيف لا يفعل ذلك ؟ وهو الذي أمضى ليلته يحلم بحقيبته التي أترعها بالحلوى والأقلام والألعاب، وضع فيها كل ما يحب لينتقل بها إلى المكان الذي طالما عانق تطلعاته.

قرب الباب وقف صبية مع ذويهم .. بدت على وجوههم ملامح الخوف من هذا العالم الجديد، وقبل أن يفطن ابني لمدلول نظراتهم حملته ودلفت به إلى الداخل .. زرعته غرسة في هذا البستان الكبير وحلمت به شجرة يانعة بعد ست سنين!... ولكن بعد بضعة أيام لم أجد بدا من إحضار ابني إلى المنزل قبل نصف ساعة من موعده .

صعدت سلم المدرسة .. طرقت باب الإدارة أستأذن بذلك، فلم يمانع المدير وطلب مني أن أذهب بنفسي إلى الفصل وآخذه . امتلأت نفسي بالامتنان لهذا المربي الفاضل.

اتجهت نحو الفصل شارد الذهن بعض الشيء، وفجأة نبهني صوت وجفت له!! سارعت خطاي، ووقفت أمام الباب المفتوح قليلا، وإذا بي أمام مشهد أذهلني .. كان المدرس منكبا على منضدة يضرب عليها بيده ويصيح :

– أعمى ؟؟ ... ما ترى ؟ ... أهذا عصفور؟..

كان يخاطب طفلا لم أتبينه من مكاني .. جالت نظراتي في أرجاء المكان .. الأطفال منكمشون في كراسيهم كفئران محاصرة .. سكن الرعب في عيونهم فزاغت نظراتهم .. خيّل لي أن قلوبهم الصغيرة تكاد تتوقف عن الوجيب.

لم أتميز ملامح ولدي للوهلة الأولى، شَبَهُ واحد يغزو بصري .. وران على المكان سكون مخيف . دوت ضربة أخرى وعلا الصياح من جديد. تقلصت أجساد الصغار أكثر، واستدارت الرؤوس نحو المعلم ووقع بصر ابني عليَّ فصرخ قاطعا ذلك الصمت:

– أبي ..

واندفع نحوي لا يلوي على شيء، وأمسك بي بقوة .. أحسست أصابعه النحيلة تنغرس في فخذي .. وسرت إليّ من جسده المنتفض حرارة حارقة، وأحسست بكمٍّ من صرخات الاستنجاد المكتوم بعدد العيون الصغيرة التي تسمرت تحدق بي . جثوت على الأرض أضم ابني إلى صدري لحظة، ثم رفعت رأسه أمام وجهي لأجد لؤلوتين تتدحرجان من مقلتيه على صفحة وجهه المتقع .. التفت إلى بقية الصغار فوجدتهم وقوفا تعلقت أنظارهم بي .. ورأيت الغضنفر ..

تسمرت نظراتي على وسطه لحظة .. فظهر لي نصف طفل بجانبه لم يبلغ طول ساقه، وخيل لي أن حدقة الطفل أكبر من قبة الكون، وأنفه المدبب ترتجف أرنبته كأنف قارضة .

رفعت نظري لأبلغ رأس الغضنفر رويدا رويدا متسلقا انبعاجا مهترئا، ثم لأعبر تكتلا منتفخا زُرع في أعلاه وتدٌ غليظ لصقت به كرة بلا معالم .. وبعد دهر من الرحيل شاهدت فتحتين سوداوين عبرتُ من خلالهما إلى قفراء مرعبة أفزغتني .

انفجر في رأسي بركان أشعل الدماء في عروقي .. أسرني الأسى وغزت حلقي مرارة ألجمتني .. استقمت واستدرت دون أن أنبس ببنت شفة،، وخطوت خارجا أحمل في ساقي اليمنى ولدي كثؤلولة دافئة أمشي بها في كهف بارد .. وفجأة تنفصل تلك الثؤلولة عني تحت ضوء الشمس، فقد غمرها عبق الحياة في الشارع وداعبها نسيم الحرية. ■

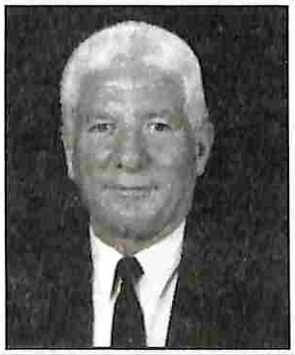

بقلم : محمد منذر قبش
سورية